المحاضرة ② : فن الخطابة .

الخطابة

تعدّ الخطابة من أبرز الفنون النّثرية التي عرفت منذ القديم، وقد ازدهرت في العصر الجاهلي، وارتبطت بأحوال العرب أيّما ارتباط، إذ كانت تقتضيها طبيعة حياتهم:في أفراحهم وأتراحهم، في سلمهم وحروبهم، في صلحهم وخصوماتهم... وكانت تلقى في أماكن اجتماعهم كالمجالس والأسواق وساحات الحرب وبين يديالأمراء والملوك ورؤساء القبائل...الخ

تعريفها:

يقول قدامة بن جعفر: "إنّ الخطابة مأخوذة من خطب أخطب خطابة... واشتق ذلك من الخطب، وهو الأمر الجليل لأنّه إنّما يقام الخطب في الأمور التي تجل وتعظم، والاسم منها خاطب، وإذا حصل وصفا لازما قيل خطيب... ولا يسمّى خطيبا إلاّ من غلب ذلك عليهوعلى وصفه وصار صناعة له..."[1]

وعرفها أرسطو بقوله: "الخطابة هي القدرةعلى النّظرفي كلّ ما يوصل إلى الإقناع في أيّة مسألة من المسائل"[2]

فالخطابة مرتبطة بالإقناع والتّأثير في المتلقينإنّها "فن إقناع السّامعين والتّأثير فيهم شرط أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال"[3]، أي مناسبا لحالة المتلقّين النّفسيّة ومقدراتهم العقليّة وظروفهم المعيشية...الخ

الخطابة في العصر الجاهلي:

عرفت الخطابة حضورا متميّزاومكانة خاصّةفي العصر الجاهلي، وكانت تتقدّم مختلف الفنون النّثرية، ونافست الشّعر ثمّ تفوّقت عليه بعد أن كان الشّعر يتصدّر جميع فنون الأدب العربي آنذاك، يقول أبوعمروبن العلاء: "كان الشّاعر في الجاهليّة يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشّعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فلمّا كثر الشّعر

---

[1] قدامة بن جعفر : نقد النّثر، ص82 (علي ملجم(

[2] الخطابة لأرسطو نقلا عن علي بوم لحم: في الأدب وفنونه، ط د، المطبعة العصرية للطّباعة والنّشر، لبنان ،ص132.

[3] سعد بوفلاقة: دراسات في الأدب الجاهلي'النّشأة والتطوّر والفنون والخصائص'، د ط، منشورات جامعة باجي مختار،عنابة، 2006، ص156.

والشّعراء، واتّخذوا الشّعر مكسبة، ورحلوا إلى السّوقة، وتسرّعوا إلى أعراض النّاس، صار الخطيب عندهم فوق الشّاعر"[4]

ويقول الجاحظ: "كان الشّاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشّعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشّاعر"[5]

(تحليل هذين القولين أرجع شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي ص28)

ويعود ذلك بالدّرجة الأولى إلى الحاجة لها بسبب كثرة الدّواعي إليها.

دواعيها:

كثرت دواعي الخطابة في العصر الجاهلي منها: المفاخرة والمنافرة، الدّعوة إلى الحرب وبث الحماسة في النّفوسوإثارة الحمية على القتال، المحافل والوفود على رؤساء القبائل وعلى الملوك والأمراء،المواعظ ،إصلاح ذات البين، الزّواج،التّعزية والتّهنئة،...الخ[6]

أشهر الخطباء في العصر الجاهلي:

من أشهر الخطباء في الجاهلية: قس بن ساعدة الإيادي، عامر بن الظرب العدواني، لبيد بن ربيعة، سحبان بن وائل الباهلي، أكثم بن صيفي، عمرو بن كلثوم، عتبة بن ربيعة، ذو الأصبع العدواني،قيس بن خارجة ...الخ

سنن الخطباء:

"كان الخطباء يحفلون بخطبهم، ويتخيّرون لها أشرف المعاني، وأقوى الألفاظ، وأشدّها وقعا على القلوب، ليكون تأثيرها أعظم"[7]

ومن السّنن التي درج عليها العرب أثناء إلقائهم لخطبهم،أنّهم كانوا يلبسون العمائم وبأيديهم المخاصر[8]، ويتكئون على القسي وأحيانا المخاصر("ومنهم من كان يتّخذ المخاصر في خطب السّلم، والقسي في خطب الحرب"[9])،ويشيرون بالعصي والقنا ليستميلوا السّامعين

4

5

[6]ينظر سعد بوفلاقة: دراسات في الأدب الجاهلي، ص156.

[7]علي الجندي، ص265.

[8]المخصرة: تشبه العصا.

[9]محمّد أبو زهرة: الخطابة. أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ط1، مطبعة العلوم، 1934، ص289.

ويجذبوا انتباههم، كذلك كانوا يركبون رواحلهم عند إلقائهم لخطبهم أو يقفون في أماكن مرتفعة ليراهم القريب والبعيد[10]

أنواع الخطب في العصر الجاهلي:

1- خطب المنافرة والمفاخرة: المنافرةوالمفاخرة بمعنى واحد،وهي الفخر والمباهاة بعراقة الأصلوشرف الحسب والنّسب، والصّفات الكريمة والمزايا الفضيلة والأخلاق الحميدة، والرّفعة والوجاهة، ينسبها الخطيب لنفسه ولقبيلته ويجرّد خصمه منها، من أمثلة ذلك منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل.

2- خطب الوعظ:وهي خطب النّصح والإرشاد والدّعوة إلى التّأمل والتّدبّر في الكون والتّفكر في الحياة والموت ...لأجل الوصول إلى خبايا الأشياء وحقائقالأمور، ومن أشهرخطبالوعظخطبةقسبنساعدة الإيادي التي ألقاها في سوق عكاظ.

3- خطب الحرب: تشتد الخطابة وتكثر إبّان الحروب، فيحضّ الخطباء قومهم على القتال ويلهبون الحماسة في النّفوس ويستثيرون الهمم للقتال، وكثيرا ماكانت تغذيها العصبية القبلية فيغيب الحلم، ومن أشهر الخطب خطبة هانئ بنقبيصةالشيبانييومذيقار.

4- خطب الزّواج:وفيها يشيد الخطيب بمحاسن وفضائل الخاطب ويعلي من شأنه ليحظى طلبه بالقبول عند أهل المخطوبة، ومن أشهرخطب الزّواج خُطبة أبي طالب في خِطبة السيّدة خديجة رضي الله عنها لسيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

5- خطب إصلاح ذات البين:وفيها ترغيب بالسّلم ودعوة للصّلح وتحكيم العقل ونبذ للعداوة والنّزاع ما بين المتخاصمين، ومن أشهر الخطباء أكثم ابن صيفي .

6- خطب التّعزية والتّهنئة: كثر هذا النّوع من الخطب في العصر الجاهلي، فحياتهم لم تكن تخلو من أحزان وأفراح، وكان الخطباء يهبّون للتّعزية فيذكرون خصال الفقيد ومحاسنه مع مواساة أهل الفقيد والتّخفيف عليهم، كما يشاركون فرحة غيرهم بالتّهنئة.

نموذج من خطب الجاهليين:

خُطبة أبي طالب في خِطبة السيّدة خديجة رضي الله عنها لسيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، قال أبو طالب: "الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريّة إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا وجعلنا الحكّام على النّاس، ثمّ إنّ محمّد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلاّ رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا، وإن كان في

---

[10]ينظر الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص7

المال قل، فإنّما قل، فإنّما المال ظلّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصّداق فعليّ"[11]

خطبة قس بن ساعدة التي ألقاها في سوق عكاظ يعظ فيها قومه: "أيّها النّاس!إسمعواوعوا.. من عاش مات ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة، إنّ في السّماء لخبرا وإنّ في الأرض لعبرا، ما بال النّاس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟.. يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه، أنّ لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنّكم لتأيون من الأمر منكرا.

ثمّ أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذّاهبيـن الأوّلين من القـرون لنا بصـائر
لمّا رأيـت مـواردا للمـوت ليس لها مصـادر
ورأيت قومي نحوهـا تمضي الأكابر والصّغائر
لا يرجع الماضي إليّ ولا من البـاقيـن غابـر
أيقنت أنّي لا محـا لة حيث صار القوم صائر"[12]

خصائصها:

من أهم خصائصها[13]:

1- القصر: وهي ميزة تميّزت بها أغلب خطب العصر الجاهلي.

2- غياب المنهج: لا نجد منهجا معيّنا يلتزم به الخطيب في العصر الجاهلي، منهم من كان يبدأ بـ "أمّا بعد" ومنهم من يبدأ بدون تمهيد كما لا يختم بخاتمة...الخ

3- عدم تسلسل الأفكار.

4- قوّة وجزالة الألفاظ.

11

12

[13] ينظرمحمّد أبو زهرة: الخطابة. أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ص ص280-286. وغازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أغراضه أعلامه فنونه، ط1، دار الإرشاد، حمص، 1992، ص 548.

5- قصر الجملة: الخطبة -في أغلب الأحيان- جمل قصيرة موزونة.

6- الاستشهاد بالشّعر.

7-كثرةالاستشهاد بالأمثال والحكم.

8- الإكثار من السّجع الذي لا تكلّف فيه، لما له من تأثير في السّامعين .

9- قلّة الصّور البيانية.

الخطابة في عصر صدر الإسلام:

بعد مجيء الإسلام ازدهرت الخطابة وحظيت بمكانة مميّزة لكثرة دواعيها والحاجة إليها في الفتوحات ونشر الدّعوة، "وإذا كان الشّاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لحاجة القبيلة إليه في تقييد مآثره وتفخيم قدرها بين القبائل، فإنّ الخطيب في الإسلام أصبح مقدّما على الشّاعرلإخلاصه في استنهاض العزائم وإرهاب الخصوم"[14].

وقد تنوّعت موضوعات الخطابة في هذا العصر ما بين دينية تسهم في نشر التّوحيد والقيم الإسلامية الفاضلة، وسياسية تسعى إلى إرساء اللّبنات الأولى للدّولة والاهتمام بشؤون الرعية، وحربية تستثير الهمم وتشحذ العزائم للجهاد في سبيل، واجتماعية تتعرض لشؤون المجتمع[15]

وبشكل عام لم يختلف كثيرا أسلوب الخطابة في عصر صدر الإسلام عن أسلوبها في العصر الجاهلي ويتعلّق الأمر بقصر الخطبة وإيجاز جملها والاستشهاد بالأمثال والحكم والمزاوجة بين المسجّع والمرسل[16]، وإن كانت خطب الجاهليين تفتقر إلى الترابط بين جملها وصيغها إذ يأتي أكثرها في شكل حكم متناثرة[17]، أمّا الخطابة الإسلامية فهي محكمة البناء تتميّز بمتانة أسلوبها وترابط أجزائها وقوّة تأثيرهاارتبطت بالوعظ والإرشاد كأسلوب للإقناع والتّوجيه كما حفلت بكثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية،وقد أضحى للخطبة في هذا العصر"غاية دينية واضحة تسمو بالعربي في مراقي الفلاح الروحي، وقد تخوض في تنظيمات حربية أو اجتماعية. وكل ذلك معناه أنّها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنّها رقيت رقيا بعيدا"[18]

---

[14]زبير دراقي: المستقصى في الأدب الإسلامي، ديوان لمطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995، ص65

[15]ينظر جورج غريب: صدر الإسلام تاريخ ونماذج محلّلة، ط4، دار الثّقافة ، بيروت، لبنان، 1983، ص 57-58.

[16]ينظر زبير دراقي: المستقصى في الأدب الإسلامي، ص66.

[17]ينظر شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النّثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر، ص63.

[18]شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النّثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر، ص63.

"وجملة القول أن ليس في عصور اللّغة زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشّعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها"[19]

بقيت سنن الخطابة كما هي لم تتغيّر في صدر الإسلام من لبس العمامة وحمل العصا أو المخصرة والإشارة بهما والوقوف على مكان مرتفع أو فوق الراحلة، والفصاحة وسرعة البديهة والبعد عن العيوب النّطقية ...الخ

أشهر الخطباء:

الرّسول صلى لله عليه وسلّم، أبو بكر الصدّيق، عمر بن الخطّاب، عثمان بن عفّان، علي بن أبي طالب، أبو الأسود الدؤلي، الأحنف بن قيس، زياد بن أبيه، سحبان بن وائل.

الخطبة في العصر الأموي:

بقيت الخطابة تحظى بمكانة مميّزة في هذا العصر، وراجت أكثر، "كما ظلّ إقبال رجال الأدب والنّاس عليها شديدا فحفلت بها المجالس، والنّوادي، وقصور الخلفاء ولأمراء وغيرها من الأماكن العموميّة والخاصّة"[20]

ومن أهمّ العوامل التي ساعدت على ازدهار الخطابة وتطوّرها:

-العامل الديني: كانت وسيلة لنشر التّعاليم الدينيّة، واستثارة همم الجنود وبثّ الحماسة في قلوبهم أثناء القتال (الحروب، الفتوحات الإسلامية)، وأداة طيّعة لدى الوعّاظ والقصّاص للتّأثير في النّفوس واستمالتها.إضافة إلى الفرق الإسلامية التي ظهرت كالجبرية والقدرية والمرجئة التي كان لكل منها وجهات نظرها في أمور العقيدة... "فكان ذلك باعثا على ظهور المناظرات، وهي فرع مهم من فروع الخطابة"[21]

-العامل السّياسي: استخدمها الأمويون كأداة للنّيل من خصومهم وإرساء دعائم حكمهم، كما استغلّها خصومهم من الأحزاب السياسيّة الأخرى (شيعة، خوارج، زبيريون...) للنّيل من السّلطة الأموية لاغتصابها الحكم، وتحريض النّاس عليها، وكان لكل حزب من الأحزاب خطباؤه الذي يدافعون عنه، ومع تعدّد المعارضين كثرت الثّورات وكثرت الخطابة والخطباء من الجانبين، "فتنوّعت أساليبها ومعانيها وطالت متونها أكثر من العصور السّابقة"[22]

---

[19] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط8، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2004، ص128.
[20] زبير دراقي: المستقصفي الأدب الإسلامي، ص175.
[21] شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النّثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر،ص65.
[22] زبير دراقي: المستقصى في الأدب الإسلامي، ص176.

لقد كثرت الخطابة وكثر الخطباء في هذا العصر حتّى إنّه "ليخيّل إلى من يقرأ في أخبار القوم أنّهم أصبحوا جميعا خطباء، فهم يخطبون في نظريّاتهم السياسيّة وفي معتقداتهم الدينيّة ويناقشون فيهابكلّ مكان، في المسجد الجامع وفي الطّرقات والأسواق، وفي السّلم وحين يتحاربون، ومن ورائهم القصّاص والوعّاظ"[23]

وتعدّدت أنواع الخطب فمنها السياسيّة ومنها خطب المحافل ومنها الخطب الدّينية والوعظ والمناظرات ومنها الخطب الحربيّة وخطب المفاخرات والمنافرات...الخ

ومن أهمّ ما تميّزت به خطب هذا العصر: الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النّبويّة، والأمثال والحكم، والأبيات الشّعريّة، إضافة إلى الطول، وتوظيف أساليب التّهديد والوعيد والتّوبيخ والإنذار، والسّجع...[24]، والاسراف في السّب والشتم عند بعضهم[25]

أشهر الخطباء: معاوية بن أبي سفيان، عمر بن عبد العزيز، زياد بن أبيه، الحجاج بن يوسف الثّقفي، عمران بن حطّان، قطري بن الفجاءة...الخ

---

[23]شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النّثر العربي، ط3، دار المعارف، مصر، ص67.

[24]ينظر زبير دراقي: المستقصى في الأدب الإسلامي، ص177.

[25]ينظر محمّد عبد المنعم خفاجي: تاريخ الأدب في العصر الأموي 1398هـ -1798م، مكتبة الكلّيات الأزهرية، القاهرة، ص134، فقد سنّ معاوية سب علي كرّم الله وجهه على المنابر في خطب الجمعة.

الخطابه في العصر العباسي: تراجعت أهمّيتها وقلّ الاهتمام بها باستثناء الخطبة السياسيّة، التي اسمرت في بداية العصر، لكثرة دواعيها:

-إرساء قواعد الخلافة

-إقناع الناس بشرعيّة حكمهم

-الرد على الخصوم وإقناعهم

ومع الوقت ضعفت الخطبة السياسية وقلت الحاجة إليها لضعف الأحزاب المعارضة مع شدّة العباسيين. الخطبة الحفلية ضمرت، لم يعد الخليفة يستقبل الوفود، واقتصرت على جنائز كبار الدّولة، وتولية الخلفاء والمولود...الخ، والخطب الدينية مع الوقت أصابها الضّعف والجمود عند الخلفاء، لكنها نشطت نشاطا عظيما في المساجد (حلقات الوعّاظ والنّسّاك، والمتكلّمين والمحدثين)، وكذلك خطب الزواج والخطب الحربية شهدت جمودا...

خصائص الخطبة في العصر العباسي:

-عدم الخروج عن الموضوعات التّقليدية.

-وضوح المعاني.

-الإيجاز.

-منهج محدّد في الخطبة (التّحميد، الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ الموضوع، ثمّ الخاتمة (قد تكون دعاء).

-كثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف والأمثال.